تقديم ديوان ابن الجنّان الأنصاري الأندلسي

بقلم الأستاذ: الحبيب شبيل
كلّية الآداب والعلوم الإنسانية
بالقيروان

صدر أخيرًا ديوان ابن الجنّان الأنصاري الأندلسي[1] ، بتحقيق د. منجد مصطفى بهجت الأستاذ بكليّة الآداب بجامعة الموصِل. ويشتمل على 192 صفحة. وهو مقسّم إلى قسمين: الأوّل بعنوان: الدّراسة والثاني بعنوان التحقيق.

وقد بيّن المحقّق في المقدّمة ظروف اهتمامه بشعر ابن الجنّان؛ فقد تفطّن إلى أهميّة شعره في المديح النبوي حينما كتب في مجلّة «آداب الرّافدين»[2] عن هذا الموضوع وتبيّن له سبق الشاعر كلّ من كتب في هذا الموضوع.

في القسم الأوّل، وهو بعنوان الدّراسة، مهّد د. منجد مصطفى بهجت لدراسة شعر ابن الجنّان بمقدّمة خصّصها لعرضٍ موجزٍ لأهمّ مظاهر الحياة السياسية في القرن 7 /11 زمن مجد الدولة الموحّدية، تلاها حديثه عن الحياة الثقافية التي فيها «انتعشت الدّراسات القرآنية والحديث الشريف، وانحسرت الدّراسات المقيّدة بالمذهب المالكي، وعادت كتب الغزالي وانتشرت.»[3] .

وعرض المحقّق بعد ذلك لأسماء بعض العلماء الذين اشتهروا بعلوم التفسير أو الفلسفة أو تراجم الأدباء ليلاحظ بعد ذلك أنّ تيّار المديح النبوي في ذلك العصر قد قوِي وكان ابن الجنّان أبرز الشعراء فيه.

---

(1) ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي، شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن السّابع الهجري. جمع وتحقيق ودراسة الدكتور منجّد مصطفى بهجت. مطابع التعليم العالي. العراق . 1410 هـ — 1990 م.

(2) مجلّة «آداب الرّافدين» العدد 13. جامعة الموصل سنة 1981.

(3) ديوان ابن الجنان. ص 6 ، 7 .

إنّ أهمّ ما يمكن ملاحظته في ما يتعلق بحديث المحقّق عن الإطار الذي نشأ فيه الشاعِر، عدم اهتمامٍ بالحياة الاجتماعية التي نراها عنصرًا أساسيًا في انتشار تيار المديح النبوي في الأندلس في القرن 7 /13. فهذا الشعر ــ دون شكّ ــ كان يُلاقي رواجًا بين الجمهور لظروف اجتماعية كانت تكيّف واقع المجتمع الأندلسي آنذاك.

بعد هذا التمهيد عرض الدكتور منجد مصطفى لمظاهِر من حياة ابن الجنان وسيرته فلاحظ أنّه «عاش في القرن 7 /11، عصر الموحّدين، حيث شاهد في حياته بالأندلس مجد الدولة الموحّديّة، كما شهد انحسارها وضعفها»(4) . واستند في الترجمة لابن الجنان على شعره حينا، وعلى آراء بعض العلماء حينا آخر. وعمومًا فإنّ المحقّق في هذا القسم سعى أن يهتمّ بكلّ دقائق حياة ابن الجنّان مثل تعلّقِه بأبيه، وتعلّمه، وخلقه، وفضله وصلته المتينة بأبناء عصره ذلك أنّه «على الرغم من ميله الشديد للزّهد في الحياة وعدم انحيازه لأمراء عصره، فإنّه لم يكن ذاهِلا عن مجتمعه نائيًا عنه، بل كانت له مشاركات»(5).

حاول المحقق في هذا القسم المتّصل بحياة ابن الجنان جمع عناصِر مختلفة عن الشاعر: وهذا المنزع قد جعل الحديث يتّسم بميسم الجمع من غير تحليل لأثر العوامل التي تحدّث عنها في تكييف رؤية الشاعر إلى الحياة؛ وحتى الحديث عن ثقافة ابن الجنان جاء خاليا من توظيف المعلومات لمقصد الترجمة للشاعر.

والفصل المنهجي بين عنصري عرض ملامح العصر من ناحية والترجمة للشاعر من ناحية أخرى ينبغي أن لا يؤدي إلى قطيعة مفهومية بين العناصر.

بعد الترجمة لابن الجنان، انتقل الباحث إلى العناية بديوان الشاعر وبمصادِر شعره. وبعد الإشارة إلى أنّ مصادر هذا الشعر أوشكت أن تضيع، وأن ما وصلنا منها كان برواية واحدة تعرّضت إلى كثير من التصحيف والتحريف، لاحظ أنّ ما جمعه من الشعر هو 54 قصيدة يبلغ عدد أبياتها زهاء 1300 بيتٍ. ثمّ حدّد مصادر تلك القصائد وحلّلها مصدرًا مصدرًا في علاقتها بشعر ابن الجنّان؛ وأهمّها مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرابط (ت 663 /1264) الذي يُعتبر من أوثق المصادر لهذا الشعر لأنّ صاحبه كان ينقل مشافهة عن الشاعر.

(4) نفسه ص 9.
(5) نفسه ص 12-13.

لقد بدا تحديد المحقق لمصادر شعر ابن الجنان هامًّا؛ فإضافة إلى أنّه قد اتّسم بالدّقة والرّصانة في رصدِ منزلة شعر ابن الجنان في المصادر القديمة؛ فإنه قد ألحّ على إهمال المحدثين له، فلم يقف عند ذكر شعره غير يوسف النبهاني في كتابه «سعادة الدّارين» وشكيب أرسلان في كتابه «الحلل السندسية»، بما يدلّ ــ في نظر المحقّق ــ أنّ الشّاعر قد «نال الحيف والإهمال من الدّارسين المُحدثين».

بعد هذا انتقل صاحب التحقيق إلى دراسة شعر ابن الجنان، فخصّص لذلك عنصرين: العنصر الأوّل سمّاه: موضوعاته الشعرية. والعنصر الثاني سمّاه: السّماتُ الفنّيةُ.

وأهمّ ما لاحظه المحقّق في ما يتصل بموضوعات شعر ابن الجنّان، أنّ الشاعر نظم «في موضوعات الشعر العربي المعروفة، باستثناء الموضوعات التي باينت سلوكه الديني وسيرته القويمة»[6] . وهو يعني بها ما سمّاه في ما بعد الغزل الماجن والهجاء. ثم تناول بالتحليل أهمّ موضوعاته الشعرية وأهمّها «الإلاهيات والنبويات» التي تؤلّف نسبة 44% من مجموع قصائد الديوان.

بعد ذلك وقف المحقق على أهمّ قصائد الإلاهيات والنبويات ليؤكّد من خلال النّظر فيها المواجد المستعرة التي سيطرت على ابن الجنان في هذا الشعر: وهو إلى ذلك يعدّد معجزات النبيء ويذكر خصاله السّامية وصفاته الرّفيعة.

ثم نظر في شعر الإخوانيات والمراجعات ليلاحظ أنّ القصائد في هذا المجال قد اقترنت بالمناسبات «كالتهاني والتّبريك بدخول أحد العيدين: الفطر أو الإضحى، أو تهنئة بمولودٍ ، والتعازي والمواساة بفقدان عزيز وحلول نكبة طارئة أو مرض عارض.»[7] .

وبعد النّظر في قصائد هذا الغرض، تحوّل المحقق إلى إبراز معاني الرّثاء فلاحظ أنّ عدد القصائد لا يتجاوز السّبعة، لكنها جاءت طويلة وهي «في اتجاهها العام تمِيل إلى الندبِ والتفجّع وإظهارِ اللّوعة والجزع من المُصاب الجَلل الذي رزئه الشاعر.»[8] .

لقد امتاز هذا القسم من عمل د. منجد مصطفى بمنهج بيّن في تناول الخصائص المعنوية لشعر ابن الجنّان، فإضافة إلى أنّه قد أحاط بكلّ الأغراض الشعرية، فإنّه وقف عند كلّ القصائد يستجلي معانيها المتواترة والشاذة مفضّلا ذلك على النّظر الرّصين في النّص.

---

(6) نفسه ص 19.

(7) نفسه ص 30.

(8) نفسه ص 42.

وفي ما يتعلّق بما سمّاه المحقّق «السمات الفنيّة» لشعر ابن الجنّان فإنه لاحظ فيه سمات الطبع الشعري مع عنايته «بالصوغ والصبغ». وتوقف عند غرض المديح النبوي ليعلّل سبب انتشاره في الأندلس بما نَال البِلادَ من هجمة النّصارَى فلجأ المسلمون إلى جناب الرّسولِ الكريم يمدحونه فوجدوا في ذلك متنفّسًا...؟!!.

ولاحظ أنّ أهمّ خصائص قصيدة المديح النبوي «استبطان لمفاهيم كثير من الآيات والأحايث.»[9] يدرجها الشاعر مستخدما أسلوب الاقتباس الإشاري، وسبب ذلك عند المحقّق التأثر بالمذهب المالكي الذي يكره الاقتباس من القرآن اقتباسًا مباشرًا.

وفي حديثه عن أغراض الشعر الأخرى بيّن أنّها وثيقة الصّلة «بمفردات حياته اليوميّة، لذلك كان شعره في هذه الأغراض بعيدًا عن التكلّف. وقد جاءت جلّ القصائد مؤسسة لما سمَاه المحقّق «الوَحدة الموضوعيّة في القصيدة الشعريّة»[10]. ومعنى ذلك في نظره أنّ القصيدة لا تشتمل على أكثر من موضوع واحِدٍ. وإن وُجد هناك موضوع آخر فإنه يكون شديد الِالتصاق بالموضوع الأوّل.

ونتوقف هنا لنبيّن أنّ مفهوم وَحدة القصيد في النقد الأدبي، لا ينفي تعدّد المواضيع في القصيد الوَاحِد مثلما ذهب إلى ذلك المحقّق، وإنما الوحدة الفنية للقصيد تكمن في ما ينشأ بين المواضيع المختلفة في النصّ من تناغم، كذلك تكمن في تناغم الأساليب في ما بينها ، وتناغمها مع المواضيع.

ثمّ نظر في لغة شعر ابن الجنان وأساليبه. ففي ما يتّصل باللغة لاحظ المحقق أنّ الشاعر اعتمد أسلوبين مختلفين سمّاهما:

1) لغة سهلة ميسورة ، وهي لغة قريبة من لغة النثر ، وكأنّ الشاعِر يريد بذلك أن يقرِّب شعره لأكبر عدد من النّاس، وهذه ميزة أشعار المديح النّبويّ وأشعار الزّهدِ عامّة.

2) لغة متينة الألفاظ وأسلوب متماسك التّراكيب. وخاصيّة هذا الأسلوب أنّه يعتمِد فنون البلاغة من جناس وطباق ومقابلة وتكرارٍ ولزوم مالا يلزم. وما إلى ذلك.

---

(9) نفسه ص 51.
(10) نفسه ص 52.

وقد تتبّع المحقّق تجلّي هذه الأساليب في شعر ابن الجنان. ومن أهمّ الملاحظات التي نجدها في هذا القسم الحديث عن المعارضات في شعر ابن الجنان، ولعل أهمّ معارضة تلك القصيدة التي عارض بها الشّاعر قصيدة علي بن الجهم المشهورة :

[طويل]

عُيُونُ المَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَٱلْجِسْرِ جَلَبْنَ الهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

وعن الأوزان والقوافي التي يعتبرها المحقق «العنصر الرّئيسي في القصيدة الشعرية»[11] لاحظ أنّ ابن الجنان استخدم أقلّ من نصف بحور الخليل بن أحمد (7 بحور فقط)، واعتمد الشاعر ما سمّاه المحقّق «البحور الطويلة الهادئة» وهي في نظره الطويل والكامل والبسيط والوافر، كما اعتمد ما سمّاه المحقّق أيضا «البحور السّريعة المضطربة» التي لا تمثّل غير نسبة 25% من بحور الدّيوان، وهي المجتث والخفيف والمنسرح.

ولا تبدو المفاهيم النقديّة المتّصلة بتقسيم بحور الشّعر إلى هادئة ومضطربة مقنعة، فهي تحمّل البحر خصيصة ليست بالضرورة فيه، فالاضطراب أو الهدوء ليس مرجعه البحر الشعري، ولكّنه نسق يجري في النصّ الشّعري، وتتظافر في آدائه والتعبير عنه تناغم المظاهر الفنيّة مع معاني القصيد.

وفي ما يتعلّق بالقوافي، لاحظ المحقق أنّها جاءت موافقة لِما هو شائع في الشّعر العربيّ بشكل عامّ، فدرس توزّعها في النصّ معتمدًا تقسيم أبي العلاء المعرّي لأنواع القوافي إلى «الذلُل والنّفر والوُحش». وهو يدرس القوافي هنا باعتبارها حروفًا ساكنة، لذلك رأيناه في ما بعد يتحدّث عن أنواع القوافي من حيث الحركات، فلاحظ أنّ «المتواتِر» هو أكثرها حضورًا، أمّا أقلّ القوافي تواتُرًا فكان المترادف ونسبته 4%.

كان غرض الباحث في هذا القسم الذي سمّاه الدّراسة، تحديد خصائص شعر ابن الجنان الأنصاري إلى جانب التعريف بصاحبه. ولم يخل هذا الجزء من فائدةٍ رغم المآخذ الواضحة التي بيناها في سياق العرض، فهو يسلّط الضوءَ على شاعرٍ مغمورٍ، ويدرس دراسة في منتهى الكلاسيكية ــ أدوات نقد ونتائج ــ أهمّ خصائص هذا الشعر. إلّا أنّ النّظر في مادّة الشعر المحقّق، يدعو إلى تطوير أدوات النقد ومفاهيمه فمثلا بدلًا من دراسة الأوزان والقوافي في قسم مستقلّ، كان يمكن تخصيص عنصر كامل لدراسة الإيقاع في شعر ابن الجنان، ذلك أنّ

(11) نفسه ص 61.

الإيقاع لا ينشأ من الوزن والقافية فقط وإنما تدعّمه عناصر أخرى أشار إليها المحقق في مواضع متفرّقة من هذا القسم كالتكرار والتجنيس ورَدِّ الأعجاز على الصدور، لكنّه لم يبين مدى مساهمتها في تأكيد ظاهرة الإيقاع في النصّ الشّعري.

القسم الثاني من عمل د. منجد مصطفى كان تحقيق الديوان، وقد رتّب القصائد ترتيبا ألفبائيا، واعتمد في التحقيق خاصّة على مخطوط «زواهر الفكر وجواهر الفقر» لابن المرابط، وعاد إلى مصادر الأدب الأندلسي المطبوعة ليقارن بين المخطوط والمطبوع ويثبت أرجح الرّوايات وأصوبَها. والملاحظ أنّ هذا القسم من العمل جاء على قدرٍ كبيرٍ من الدّقة والضّبط، فيه جهد أكاديمي محمود في تحقيق النصّ، فإضافة إلى أنّ المحقّق اتبّع كلّ نصّ شعري بالإشارة إلى البحر المنظوم فيه، فإنّه بذل جهدًا كبيرًا في الإشارة إلى مواطن التصحيف والتحريف في المخطوط وتصحيح ما أمكن تصحيحُه منها، إضافة إلى سعيه لشرح الكلمات الصعبة وإشاراته الكثيرة إلى الآيات القرآنية التي استوحى منها الشاعر معانيه، أو التعريف ببعض الأعلام الذين جاء ذكرهم في الشعر.

واتبع المحقّق هذا العمل بما سمّاه «التخريجات» حيث حَدّ فيها مصدَر أو مصَادِر كلّ نصّ ثمّ اتبع ذلك بفهرس قصائد الديوان، ونلاحظ أنّ الفهرس هامّ لأنّه إضافة إلى ذكره رقم القطعة وصفحتها في التحقيق فإنه يذكر صدر البيت والقافية ونوعها وعدد الأبيات في القصيد والبحر. وكلّ هذا ينمّ عن الجهد الدّقيق في تحقيق النّصّ.

ونؤكّد في النهاية أنّ جهد د. منجد مصطفى بهجت في تحقيق هذا الديوان هامّ، وإن بدا لنا الاختلاف بين قسمي الدّراسة وتحقيق الشعر واضحًا فقسم التحقيق جاء مُتسما بالدقة الكاملة ممّا يجعل الديوان من هذا الجانب مكتملا، أمّا قسم الدّراسة فقد بدا محتاجًا إلى مراجعة أدقّ، وخاصّة إلى أدوات عملٍ في النقد الأدبي تحيي الأثر وتجدّد الرؤية إليه بما يجعله متماهيًا مع تقدّم النقد الأدبي. ولاشكّ أنّ مراجعة أدوات النقد يتبعه تطوّر أعمق في النتائج .

غناء الذباب ورقص البراغيث

قال أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف الجذامي في اجتماع البعوض والذباب والبراغيث في مجلس، مخاطبًا لصاحبه يستهزىء به : [**الكامل**]

لَكَ مَجْلِسٌ كَمُلَت بشارتُنــــا بِه ... لِلَّهــو لَكِــنْ تَحت ذاك حديثُ
غَنَّـى الذُّبـابُ وظَـلَّ يُزْمِر حولــه ... فيـه البعــوضُ ويــرقصُ البُرغــوث

ابن دحية: المطرب ص 70